

الدرس الأول

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين والعاقبة للمتقين ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ، صلى الله وسلم عليه وعلى آله وأصحابه أجمعين ، اللهم لا علم لنا إلا ما علمتنا ، اللهم علمنا ما ينفعنا ، وزدنا علماً ، واجعل ما نتعلمه حجةً لنا لا علينا .

ستكون القراءة بإذن الله -عز وجل- في منظومة لطيفة نافعة ، كتبها أو نظمها الإمام العلامة الشيخ حافظ بن أحمد بن علي الحكمي -رحمه الله تعالى- ، وبين يدي دراسة هذه المنظومة لا بد من حديث مختصر وموجز عن الناظم وعن المنظومة ، ولن أطيل .

أما الناظم -رحمه الله تعالى- : فهو علمٌ مشهور ، وإمامٌ ذاع صيته بين طلاب العلم وأهله بمؤلفاته النافعة ، ومنظوماته الجميلة في فنون الشريعة ، كان -رحمه الله تعالى- برز في العلم منذ صغره ، ونشأ نشأة علمية طيبة مباركة ، سيأتي الحديث عن شيء من جوانبها لما فيها من الفائدة العظيمة لطالب العلم ، وهو -رحمه الله- لم يعمّر طويلاً ، بل لم يعيش إلا خمس وثلاثين سنة وأشهر قليلة ، مات صغيراً -رحمه الله تعالى- ولكنه خلف ثروة علمية في مؤلفات كثيرة نافعة وأيضاً طلاب علم بارزين محققين تلقوا على يديه ، وأخذوا العلم عنه واستفادوا من علمه ، وهو -رحمه الله- نشأ في بلد أو في قرية لم يكن فيها علم -انتبهوا لهذا- لم يكن فيها علم وبين أبوين فقيرين ، ولم يكن عندهم كتب ، وكانت عندهم أغنام ونشأ على رعاية الأغنام ، رجل نشأ في البادية في منطقة ليس فيها علم ويقوم برعاية الأغنام في الصباح والمساء ، يذهب بالغنم صباحاً ومساءً ، وهذا عمله منذ الصغر ، ويشاء الله -سبحانه وتعالى- أن يكون هذا الشاب الذي هذه نشأته عالماً من علماء الأمة البارزين المشار إليهم بالعلم والتحقيق ، والحرص على مؤلفاته -رحمه الله تعالى- والعناية بها ، وكتبه في حياته وبعد حياته كانت محطّ الأنظار واهتمام طلاب العلم ، وفي حياته كان الملك سعود -رحمه الله تعالى- طبع مؤلفات الشيخ -رحمه الله- لأنها برزت لها مكانة علمية وأشاد بها أكابر أهل العلم ، فطبعت وقررت في المعاهد ، والمنظومات حفظت ، وعقدت دروس عديدة ، وكانوا في حياته -رحمه الله- يطالبونه أيضاً بشرح هذه المنظومات التي كتبها -رحمه الله تعالى- ومن ضمنها هذه المنظومة التي ندرسها ، نظمها -رحمه الله- أو بدأ بنظمها وعمره تسعة عشرة سنة ، وأنهاها كاملة وعمره عشرون سنةً ، وشرحها المعروف «معارج القبول» وهو من أنفع الكتب وأوعبها وأوسعها في التوحيد بجميع أبوابه ، فرغ من

تأليفه-رحمه الله- وعمره أربع وعشرين سنة ، صغيراً ، ومضى أيضاً في منظومات أخرى ، وكتب في النحو وفي الفقه وفي الأصول وفي المصطلح ؛ مصطلح الحديث وفي الأسانيد ، في جميع فنون الشريعة-رحمه الله- وكان كل جانب يكتب فيه يبرع ، فالشاهد أن هذا الرجل-رحمه الله- نشأ نشأة فقيرة في مجتمع أو في بيئة ليس فيها علم وكان أخوه محمد أكبر منه سناً قليلاً ، كان بعثه والده -رحمه الله- للقرآن ، مكان الكتاب الذي فيه قراءة القرآن وتعليم القرآن ، فكان يحفظ أولاً الحروف الهجائية ، ثم بعد ذلك يبدأ بالفاتحة وقصار السور ، وإذا رجع يبدأ يعلم أخاه حافظ ما درس ، وكان يرى في أخيه نجابة عجيبة في الحفظ والاستيعاب بسرعة ، فلما فرغ أخوه محمد من قراءة قصار السور من المصحف على المقرئ في الكتاب بدأ يعلم أخاه ، واستطاعوا أنهم يتمكنون من القراءة ، فعكف هو وأخوه على القرآن حتى قرؤوه كاملاً ، وهم في مكان ما فيه أحد يقرؤهم أو يعلمهم أو يتفرغ لهم ، وأيضاً ما عندهم وقت ، عندهم أغنام ، ووالده ووالدته لا يسمحان له بالذهاب لطلب العلم ، فكان تعلم في البداية من أخيه محمد ، وأخوه محمد مثله طالب صغير ليس عنده علم ، ولكن يذهب ويقرأ ويأتي إلى أخيه في البيت لما يفرغ من أعمال المنزل أعمال رعاية الأغنام ، يبدأ يعلم أخاه ما تمكن من تعلمه .

يقول أخوه الشيخ محمد -رحمه الله- : « أنه دخل كتاب القرية فعرف الحروف الهجائية بحركاتها وسكناتها في يوم واحد ، حيث وصل إلى أبجد هوز ، وفي اليوم الثاني سمع الفاتحة ، وعندما وصل إلى سورة الفجر عرف القراءة والكتابة وبعد أن تمكن من ذلك ، علم أخاه حافظ ، فعرف القراءة والكتابة في أيام يسيرة ، ولم يشعر به إلا وهو يفتح المصحف ويقرأ بنفسه ، وهنا استبشر أخوه خيراً فأخذ يدرس في الكتاب ، فإذا عاد راجع مع أخيه ما درس حتى وصلا سورة التحريم ، وبعدها انقطع الشيخ محمد عن الكتاب وأخذ يقرأ مع أخيه في بيتهما بالجاذع حتى ختما المصحف في وقت يسير ، حيث انتهى من ذلك عام تسعة وأربعين وثلاث مائة وألف ، وعمر الشيخ حافظ لم يتجاوز السبع سنوات ، واستمر الأخوان في طلب العلم » .

الآن عرفوا القراءة ، يقرؤون بسهولة ما يقع في أيديهما من كتب وليس هناك علماء ، فكانوا إذا سمعوا بفقهاء أو رجل عنده كتب في أي منطقة قريبة من قريتهم يذهبون إليه ويستعيران منه ما عنده من كتب ، والعادة يكون عنده كتاب كتابين ثلاثة ، فيستعيران الكتب ، استعاروا من الفقيه حسن المعجمي في قرية الدغارير كتاب الرحبية في الفرائض ، وقام الشيخ حافظ بنسخه ، وحفظاه في ثلاثة ليالي واستعار من قرية جُعر الأصول الثلاثة ، وكشف الشبهات وقرأه مع أخيه حافظ حتى أتقنا النسختين ، واستعار من قرية أبي حجر

مجموعة الرسائل النجدية ، واستمر على هذه الطريقة في استعارة الكتب ، وحفظ المتن ، حتى ذكروا أن الشيخ حافظ في صغره حفظ لامية الأفعال ، وجدها فحفظها وهو لا يدري عن معناها شيئاً ، ولكنها أوزانها جميلة وكلماتها ، قالوا أنه حفظها لينافس بها الرعاة ، الرعاة أحياناً يحدون الغنم بشعر وأشياء يحفظونها ، فكان يأتيهم بلامية الأفعال فيبهرون من هذه الأبيات وهذا النظم ويستغربونه ، فحفظها وهو لا يعرف عن معناها أي شيء في ذلك الوقت .

قال : « كانوا يعرضون - أي الرعاة - كلمات تتكون من حروف متقاربة في المخارج ، فحفظ الشيخ حافظ هذه المنظومة وكان يعرضها عليهم فيحارون في تكرارها ، وحفظ الجزرية والأجرومية وغيرها » .

ومرّت السنوات وهم على هذه الطريقة ، ثم أحد من استعاروا منه الكتب ، ورأى همّتهم ورغبتم في الطلب قال لهم : إنه يوجد شيخ داعية وواعظ ورجل مؤثر في صامطة ، قرية منهم وليست بعيدة ، يدعى : عبد الله القرعاوي وهذا الرجل كان له نشاط تفرّغ في الدعوة إلى الله - سبحانه وتعالى - و تعليم الناس في تلك المناطق ، فأخبر محمد بذلك وأخبر أخاه فأشار عليه أخوه حافظ أن يذهب إلى الشيخ عبد الله القرعاوي ويستعير منه كتاباً في التوحيد ، وكتب معه كتاباً للشيخ عبد الله القرعاوي ، ونظم بيتين من الشعر قال :

إن الذي رقم الكتاب بكفه يقرأ السلام على الذي يقرأه

وعلى الذي يقرأه ألف تحية مقرونة بالمسك حين يراه

ثم طلب منه أن يعيره كتاباً في التوحيد يستفيدون منه ، الشيخ القرعاوي كتب عن حياة تلميذه حافظ حكيم ، وكان أيضاً زوجة بنته ، والشيخ حافظ عرفنا أنه توفي صغيراً فبعد وفاته كتب عن حياته الشيخ عبد الله القرعاوي .

يقول الشيخ عبد الله : « في سنة ألف وتسعمائة وخمسين ، أانا محمد بن أحمد الحكمي -أخو حافظ- برسالة من أخيه يطلب كتاباً في التوحيد ويعتذر من عدم القدوم -يعني إليه- لاشتغاله في خدمة أبويه في رعية الغنم ، ويطلب -أي الشيخ حافظ وأخوه- منّا- أي من الشيخ عبد الله القرعاوي- وصولنا للقرية التي هم بها ، فأجبت حالاً إلى ذلك ومعني جملة من الطلبة ، فكان والله الحمد لا ألقى درساً إلا ويحفظه ويفهمه ، فأقمت بقرية الجاطع أياماً وكنت أتيهم مرةً ويأتييني أخرى لطلب الإفادة من التعليم والتعلم » .

الشيخ عبد الله لما رأى نجابة الشيخ حافظ طلب من والديه أن يأخذه معه إلى صامطة ويعيش معه ويعلمه ويفقهه في الدين فرفضاً ، حتى في بعض كتب التراجم ، قالوا له : يا شيخ ابننا وغنمنا ، يعني لا يمكن أن

نفرت ، فما قبل أن يذهب ابنهما عند الشيخ مع أنه حاول أن يقنعهم وعرض عليهم ، حتى إنه قال لهم : أنا أتكفل لكم بشخص أعطيه مرتب هو يتولى رعاية الأغنام وأعطونا الابن ؛ لأننا نراه فيه نجابة وحفظ متوسم فيه ، فأبدأ ما استجابوا ، ثم توفيت والدته ، وأذن والده لهما يومين في الأسبوع أو ثلاثة أيام يذهبان إلى الشيخ ويعودان ، فالشيخ نشأ هذه النشأة ، وأنت تستفيد من هذا فائدة عظيمة جداً أنه لا يلزم أن يكون الإنسان في حاضرة علمية ، خاصة الآن في زماننا هذا تسرت والله الحمد وسائل التعليم والعلم والدراسة والتواصل ، إذا كان الشيخ - رحمه الله - حصل هذا التحصيل وهو يعيش هذه الحياة ، فكيف الأمر بمن تيسر له أمور وأبواب ومجالات من تحصيل العلم ما لم ييسر مثله للشيخ حافظ - رحمه الله تعالى - .

قصة تأليفه لهذه المنظومة - منظومة سلم الوصول - :

أن الشيخ عبد الله القرعاوي - رحمه الله تعالى - لما رأى فيه النجابة والهمة العالية والاستفادة من كتب التوحيد ، والعناية بها ، وخاصة ما تيسر - له قراءته من كتب ابن تيمية وكتب ابن القيم ، وشيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب - رحمه الله - أشار عليه أن يكتب منظومة ، وهو رأى فيه براعة في النظم ، فأشار إليه أن يكتب منظومة في العقيدة ، وكان عمره آنذاك تسع عشرة سنة ، فأشار إليه أن يكتب منظومة ، فبدأ يكتب في سلم الوصول ويعرض على الشيخ عبد الله ما يكتبه ، في تلك الأثناء زارهم الشيخ عبد الله بن سليمان بن حميد - رحمه الله - ولما حضر - سأل عن حافظ ، لأنه سمع عن حفظه ، سأل عن حافظ فدل عليه ، فأخبره الشيخ عبد الله القرعاوي أن الشيخ حافظ يعمل الآن على إخراج منظومة في التوحيد ، فتعجب الشيخ بن حميد ، وسأل هل ينظم حافظ الشعر فأجابه الشيخ عبد الله : نعم ، فتمثل الشيخ بن حميد - رحمه الله - في المجلس بقول الشاعر :

لقد سمعنا بأوصافٍ لكم كملت فسرنا ما سمعناه و أحيانا

نلنا محبتكم من قبل رؤيتكم والأذن تعشق قبل العين أحيانا

فتمثل بالبيتين ، فأنشأ الشيخ حافظ في المجلس نفسه ، على إثر سماعه لهذين البيتين ، أنشأ ارتجالاً قائلاً :

الحمد لله رؤياكم قد اتصلت بإذن باري البرية الله مولانا

والله يشهد أننا نحن إخوتكم والمؤمنون كذا في الله إخوانا

ثم كتبها وأعطاهما للشيخ وبعد ذلك اطلع الشيخ عبد الله على ما انتهى منه تلميذه حافظ من نظم سلم الوصول ، وأعجب به وفرغ الشيخ -رحمه الله- من هذه المنظومة عام ألف وثلاث مائة واثنين وستين ، وكان ولد -رحمه الله- في الرابع من رمضان سنة ألف وثلاث مائة واثنين وأربعين ، وفرغ من المنظومة وهو لم يكمل بعد العشرين سنة ، فرغ منها في ذلك الوقت ، ثم أشار عليه الشيخ عبد الله القرعاوي ، أشار عليه أن قبل ذلك أن لما سمع ابن حميد مواضع من سلم الوصول ، أعجبه جداً وأعطى للشيخ حافظ ثلاثون ريالاً هدية ، وأعطاه بشتاً أبيض ، أيضاً هدية له ، ولما فرغ منها انتشرت في وقته بين الطلاب وحفظوها ، والمنظومة كما سنقف عليها رائعة جداً ، وسهلة وواضحة وجامعة ، وأيضاً بحر الرجز سهل الحفظ ، ففي زمان الشيخ انتشرت بين الطلاب وتناسخوها وحفظها الكثير منهم ، فطلب الشيخ القرعاوي من الشيخ حافظ أن يكتب عليها شرحاً ، فبدأ في كتاب معارج القبول وفرغ منه -رحمه الله- وعمره أربع وعشرين سنة .

مضى -رحمه الله- في العلم والتأليف ، ويمكن للإخوة الاطلاع على ترجمة الشيخ في عدد من المصادر من ضمنها ترجمة لابنه أحمد ، ترجمة جيدة مختصرة ، وجُعِلت في مقدمة بعض مؤلفات الشيخ مثل معارج القبول وغيرها من مؤلفاته بقلم ابنه أحمد ، وله ترجمة بقلم تلميذه الشيخ زيد بن محمد بن هادي المدخلي -حفظه الله- وأيضاً له ترجمة حافلة للشيخ أحمد بن علي المدخلي وهي رسالة علمية تقدم بها أظن إلى جامعة الإمام طبعت بعنوان «الشيخ حافظ بن أحمد الحكمي حياته ، ومنهجه في تقرير العقيدة ونشرها في منطقة الجنوب» فهذه بعض المصادر التي يمكن الرجوع إليها في ترجمة الشيخ -رحمه الله تعالى- ، وبعد حياة حافلة بالعلم توفي -رحمه الله- سنة ألف وثلاث مائة وسبعة وسبعين ، على إثر مرضٍ أصابه أثناء أدائه لحج بيت الله الحرام وتوفي بسبب ذلك المرض وكان عمره آنذاك خمساً وثلاثين سنة ، ودفن بمكة وذكروا أن الذي صلى عليه الشيخ عبد العزيز بن باز -رحمه الله تعالى- .

والآن ندخل في المنظومة وأحب أن أنبه أن المنظومة أبياتها كما هي بأيديكم مائتين وسبعين بيتاً فلن نتمكن من إنهاؤها في هذا الأسبوع ولكن إن شاء الله الدورات القادمة في منتصف الفصل الدراسي أو في نهاية الفصل الدراسي نكمل بإذن الله تعالى قراءة هذه المنظومة ، وأيضاً الشيء الآخر أنبه أنني لن أطيل في الشرح لأنه يأخذ وقتاً ولكن سيكون الشرح شرحاً مختصراً يكون مجرد توضيح وذكر بعض الأدلة وبعض الأمور التي يحتاج المقام إلى ذكرها .

قال المصنف - رحمه الله تعالى - :

بَدَأُ بِاسْمِ اللَّهِ مُسْتَعِينًا رَاضٍ بِهِ مُدَبِّرًا مُعِينًا
وَالْحَمْدُ لِلَّهِ كَمَا هَدَانَا إِلَى سَبِيلِ الْحَقِّ وَاجْتَبَانَا
أَحْمَدُهُ سُبْحَانَهُ وَأَشْكُرُهُ وَمِنْ مَسَاوِي عَمَلِي أَسْتَغْفِرُهُ
وَأَسْتَعِينُهُ عَلَى نَيْلِ الرِّضَا وَأَسْتَمِدُّ لُطْفَهُ فِي مَا قَضَى

الشرح :

بدأ الشيخ - رحمه الله - واستهل هذه المنظومة بذكر اسم الله - جل وعلا - فبدأ بذكر البسملة ، والبسملة يُبدأ بها في الكتبة والتأليف والقراءة والدخول والخروج وكل أمر ذي بال ، والبسملة هي طلب عون من الله - جل وعلا - وتيمنٌ بذكر اسمه وتبركٌ بذكر اسمه - تبارك وتعالى - وطلبٌ لعونه ، وقوله هنا : « أَبْدَأُ بِاسْمِ اللَّهِ مُسْتَعِينًا » .

« أَبْدَأُ » ؛ أي : كتابي ونظمي وعموم أعمالي وأقوالي ، من تحركاتٍ وسكناتٍ وزهابٍ ومجيءٍ وغير ذلك أبدأ ذلك كله « بِاسْمِ اللَّهِ مُسْتَعِينًا » ؛ والباء بسم الله باء الاستعانة ، أي أبدأ طالباً عون الله - جل وعلا - متيمناً بذكر اسمه - جل وعلا - متبركاً بذكر اسمه طالباً مده وعونه ، وقوله : « مُسْتَعِينًا » ؛ أي طالباً العون من الله - جل وعلا - وفي هذا أن المرء لا غنى له عن الله - تبارك وتعالى - طرفه عين ، لا في طلب العلم ولا في فهمه ولا في العمل وتطبيقه ولا في أي شيء ، لا غنى له عن الله طرفه عين ، وعن مده وعونه وتوفيقه ، ولهذا قال النبي - عليه الصلاة والسلام - لمعاذ بن جبل : « إني أحبك يا معاذ فلا تدعن دبر كل صلاة أن تقول : اللهم أعني على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك » فهو بدأ بهذه البداية يطلب من الله عونهُ ، وفي هذا من الفائدة لطالب العلم : أن تكون هذه حياته في طلبه للعلم وفي عبادته وفي جميع أموره يطلب عون الله - تبارك وتعالى - ويستمد العون من الله جل وعلا ، ولأجل ذا كان نبينا - عليه الصلاة والسلام - يوجه من خرج من بيته لأي مصلحة دينية أو دنيوية أن يقول : « بسم الله توكلت على الله لا حول ولا قوة إلا بالله » وجميع هذه الكلمات الثلاث كلمات استعانة .

قال : « رَاضٍ بِهِ مُدَبِّرٍ مُعِينًا » ؛ وهذا فيه الرضا بالله - عز وجل - وقد صح عن نبينا - عليه الصلاة والسلام - أنه قال : « ذاق طعم الإيمان من رضي بالله رباً » فالشيخ يقول « رَاضٍ بِهِ مُدَبِّرًا مُعِينًا » ؛ أي رضيت بالله رباً مدبراً معيناً لي ، والرضا بالله أساس الإيمان وأساس الصلاح والفلاح في

الدنيا والآخرة وهو القائد للإنسان لكل خير وفضيلة إذا رضي بالله ، قال : «رَاضٍ بِهِ مُدَبَّرًا» وهذا فيه التفويض ، تفويض الأمر إلى الله عز وجل وحسن التوكل والاعتماد على الله -تبارك وتعالى- .

قال : «وَالْحَمْدُ لِلَّهِ كَمَا هَدَانَا» ؛ وهذا فيه الاستلال بالحمد حمد الله عز وجل ويذكر في حمده الله عز وجل نعمة الهداية ﴿ الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله ﴾ ونعمة الهداية خصها بالذكر لأنها أعظم النعم ، فهو بدأ بحمد الله والثناء عليه ذاكراً أعظم النعم وهي نعمة الهداية قال :

وَالْحَمْدُ لِلَّهِ كَمَا هَدَانَا إِلَى سَبِيلِ الْحَقِّ وَاجْتَبَانَا

فهذه أعظم النعم وأكبر المنن ، ومن ضمنها توفيق الله سبحانه وتعالى للشيخ -رحمه الله - إلى العلم والاشتغال به والفهم ، فهو يذكر نعمة الله عليه وفضله -سبحانه وتعالى- وتيسيره وتوفيقه فيحمد الله - عز وجل - وفي الحديث الصحيح يقول النبي -صلى الله عليه وسلم- : «إن الله ليرضى على عبده أن يأكل الأكلة فيحمده عليها ويشرب الشربة فيحمده عليها» .

قال :

أَحْمَدُهُ سُبْحَانَهُ وَأَشْكُرُهُ وَمِنْ مَسَاوِي عَمَلِي أَسْتَغْفِرُهُ

كرر الحمد والشكر لله -سبحانه وتعالى- على نعمائه ، «أَحْمَدُهُ» ؛ أي : حمداً متجدداً متكرراً على توالي نعمه وتواتر مننه -سبحانه وتعالى- وكثرة عطاياه جل وعلا «أَحْمَدُهُ سُبْحَانَهُ وَأَشْكُرُهُ» ؛ على ما أنعم وألهم ووفق ويسر ، قال تعالى : ﴿ فاذكروني أذكركم واشكروا لي ولا تكفرون ﴾ .

«ومن مساوي عملي» ؛ أي : من سيئات أعمالي «أَسْتَغْفِرُهُ» ؛ أي : أطلب منه تبارك وتعالى أن يغفر لي فهو يحمد الله عز وجل ويشكره سبحانه ويستغفره من مساوئ أو سيئات الأعمال ، وهنا تأمل أن العبد يتقلب في هذه الحياة بين أمور :

• إما نعمة يمن الله سبحانه وتعالى بها عليه فالنعمة تستوجب الحمد والشكر للمنع .

• أو ذنب يقع فيه العبد فهذا يحتاج إلى توبة واستغفار إلى الله سبحانه وتعالى .

• أو مصيبة يتلى بها العبد فيحتاج إلى الرضا والصبر .

وقد جمع هذه الأمور الثلاثة التي ذكر العلماء أنها أسباب السعادة جمعها الشيخ فيما مضى - من كلامه فذكر الشكر وذكر الاستغفار وذكر الرضا ، وهذه الأمور الثلاثة هي أسباب السعادة ، والسعادة عليها تدور وترتكز .

قال :

وَأَسْتَعِينُهُ عَلَى نَيْلِ الرِّضَا وَأَسْتَمِدُّ لُطْفَهُ فِي مَا قَضَى

« وَأَسْتَعِينُهُ » ؛ أي : أطلب منه تبارك وتعالى العون ، يطلب من الله العون « عَلَى نَيْلِ الرِّضَا » ؛ يطلب من الله أن يعينه على الأمور والأعمال والأقوال والطاعات التي ينال بها رضا الله ، يستعين الله على ذلك ، أي على أن يوفقه وأن ييسر له « نَيْلِ » ؛ أي : تحصيل الأمور التي ينال بها رضا الله جل وعلا .

« وَأَسْتَمِدُّ لُطْفَهُ فِي مَا قَضَى » ؛ أطلب منه تبارك وتعالى أن يمدني باللطف فيما قضاه فيما قدره لي هذا فيه طلب اللطف في القضاء ، ويتضمن التعوذ بالله من سوء القضاء وقد جاء عن النبي - صلى الله عليه وسلم - الأمر بذلك قال : « تعوذوا بالله من سوء القضاء » فيطلب من الله اللطف في قضائه سبحانه وتعالى .

قال - رحمه الله - :

وَبَعْدُ: إِنِّي بِالْيَقِينِ أَشْهَدُ شَهَادَةَ الْإِخْلَاصِ أَنْ لَا يُعْبَدُ
بِالْحَقِّ مَالُوهُ سِوَى الرَّحْمَنِ مَنْ جَلَّ عَنْ عَيْبٍ وَعَنْ نُقْصَانٍ
وَأَنَّ خَيْرَ خَلْقِهِ مُحَمَّدًا مَنْ جَاءَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى
رَسُولُهُ إِلَى جَمِيعِ الْخَلْقِ بِالنُّورِ وَالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ
صَلَّى عَلَيْهِ رَبُّنَا وَمَجَّدَا وَالْآلِ وَالصَّحْبِ دَوْمًا سَرْمَدًا

ثم لما أنهى - رحمه الله - الحمد والثناء على الله سبحانه وتعالى دخل في الموضوع ولهذا قال « وَبَعْدُ » ؛ وهذه يؤتى بها عند الشروع في المقصود بعد الحمد والثناء والذكر لله عز وجل عند الشروع بالمقصود يؤتى بهذه الكلمة « وَبَعْدُ » أو أما بعد ؛ أي : مهما يكن من شيء بعد فالمقصود كذا ، يشرع في ذكر المقصود .

وَبَعْدُ: إِنِّي بِالْيَقِينِ أَشْهَدُ شَهَادَةَ الْإِخْلَاصِ أَنْ لَا يُعْبَدُ

« إِنِّي بِالْيَقِينِ أَشْهَدُ » ؛ اليقين هو تمام العلم وهو انتفاء الشك والريب ولا بد من اليقين في الإيمان والشهادة وسيأتي عند الشيخ - رحمه الله - ذكر شروط شهادة أن لا إله إلا الله وذكر منها اليقين المنافي للشك والريب ، فلا بد من شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله من اليقين ، واليقين هو انتفاء الشك والريب ، قال - عليه الصلاة والسلام - : « أشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله لا يلقي الله بهما عبداً غير شاكٍ فيهما إلا أدخله الله الجنة » فالشيخ يقول : « إِنِّي بِالْيَقِينِ أَشْهَدُ » ؛ أي : أشهد باليقين « شَهَادَةَ

الإِخْلَاصِ؛ أي: لا إله إلا الله، وشهادة أن لا إله إلا الله هي كلمة الإِخْلَاص لأنها تعني إخلاص الدين لله تبارك وتعالى وإفراده بالعبادة كما قال عز وجل: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ والإِخْلَاص مأخوذ من الخالص وهو الصافي النقي، والعبادة لا تقبل إلا إذا كانت بهذه الصفة صافية نقية لا يراد بها إلا الله - سبحانه وتعالى - فالشيخ رحمه الله يقول أشهد باليقين شهادة الإِخْلَاص، وشهادة الإِخْلَاص ما هي؟ قال: «أَنْ لَا يُعْبَدَ بِالْحَقِّ مَالُوهُ سِوَى الرَّحْمَنِ»؛ هذه شهادة الإِخْلَاص هذه لا إله إلا الله «أَنْ لَا يُعْبَدَ بِالْحَقِّ مَالُوهُ سِوَى الرَّحْمَنِ» فجمع هنا بين النفي والإثبات اللذين تنتظمهما كلمة الإِخْلَاص، النفي في قوله: «أَنْ لَا يُعْبَدَ» والإثبات في قوله: «سِوَى الرَّحْمَنِ» كما في كلمة التوحيد لا إله إلا الله، وفي هذا أن التوحيد لا بد فيه من هذين الركنين النفي والإثبات، نفي العبودية عن كل من سوى الله وإثبات العبودية بكل معانيها لله وحده، فلا يكون المرء موحداً إلا بالنفي والإثبات معاً فمن نفى ولم يثبت لا يكون موحداً، ومن أثبت ولم ينف لا يكون موحداً، إذ التوحيد لا يكون إلا بالنفي والإثبات «أَنْ لَا يُعْبَدَ بِالْحَقِّ مَالُوهُ سِوَى الرَّحْمَنِ»؛ أي لا تصرف العبادة والذل والخضوع، «بِالْحَقِّ» قال تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ﴾ وقال تعالى: ﴿لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ﴾ وفي هذا أن صرفها لغيره باطل وضلال، ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنْ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾ فلا يعبد بحق إلا الله، يقول الشيخ: أشهد باليقين أنه لا يعبد بالحق إلا الله إلا الرحمن ومعنى ذلك أن عبادة غير الرحمن أو صرف العبادة لغير الرحمن أياً كان ومهما كان باطل ولو كان ملكاً مقرباً أو نبياً مرسلأً أو ولياً من الأولياء فعبادة غير الله تبارك وتعالى أبطل الباطل وأضل الضلال، «لَا يُعْبَدُ بِالْحَقِّ مَالُوهُ»؛ المألوه: هو المعبود الذي يُذل له ويخضع، والتأله هو التعبد فيقول رحمه الله: «لَا يُعْبَدُ بِالْحَقِّ مَالُوهُ سِوَى الرَّحْمَنِ»؛ نعم بالباطل يعبد مألوهات كثيرة لكن «لَا يُعْبَدُ بِالْحَقِّ مَالُوهُ»؛ أي معبود «سِوَى الرَّحْمَنِ» أما بالباطل فما أكثر ما يعبدون بالباطل وكل عبادة تصرف لغير الله تبارك وتعالى فهي باطل وضلال.

«مَنْ جَلَّ عَنْ عَيْبٍ وَعَنْ نُقْصَانٍ»؛ أي: الله تبارك وتعالى وهذا فيه تنزيه الله تبارك وتعالى عن العيب وعن النقص، والعيب عام لكل عيب فالله عز وجل منزّه في كل صفاته عن أي عيب ومنزه في جميع صفاته عن أي نقص فهو سبحانه وتعالى له الكمال والجلال والعظمة في أسمائه وصفاته منزّه عن النقص سبحانه وتعالى، ولهذا من أسمائه الحسنَى: القدوس والسلام والطيب وجميع هذه الأسماء فيها تنزيه الله عن العيب وعن النقصان كلها أسماء تنزيه القدوس والسلام والطيب، الطيب من أسماء الله

الحسنى كما في الحديث في صحيح مسلم : « إن الله طيبٌ لا يقبل إلا طيباً » والطيب هو المنزه عن العيب و النقصان الذي أسماؤه وصفاته وأفعاله كلها طيب ولهذا نحن نقول في الصلاة : « التحيات لله والصلوات والطيبات » ؛ أي : الطيبات لله من الأسماء والأقوال والأفعال والصفات الطيبات لله ، فالله سبحانه وتعالى له الطيبات واسمه الطيب ومعنى ذلك أنه منزّه عن العيب وعن النقصان وأصل الطيب الطهارة والتنزه عن النقص وعن ضد الطيب وهو الخُبث والحَبْث فالله جل وعلا طيب أي منزّه عن العيب وعن النقصان فذكر الشيخ - رحمه الله - تنزه الله عن ذلك قال « مَنْ جَلَّ » ؛ أي تنزهه وتقّدهس « عَنْ عَيْبٍ وَعَنْ نُقْصَانٍ » والله جل وعلا ذو الجلال والاکرام .

قال : « وَأَنَّ خَيْرَ خَلْقِهِ مُحَمَّدًا » ؛ أي : وأشهد هذا مضاف إلى ما سبق : « وَبَعْدُ إِنِّي بِالْيَقِينِ أَشْهَدُ شَهَادَةَ الْإِخْلَاصِ أَنْ لَا يُعْبَدُ » « وَ » أشهد أيضاً « أَنَّ خَيْرَ خَلْقِهِ مُحَمَّدًا مَنْ جَاءَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى رَسُولُهُ » ؛ « أَنَّ خَيْرَ خَلْقِهِ مُحَمَّدًا ... رَسُولُهُ » هذه الشهادة بأن محمداً - صلى الله عليه وسلم - رسول الله ، فجمع رحمه الله في هذا الاستهلال وهذا البدء بين ذكر الشهادتين الشهادة لله بالوحدانية ولمحمد - صلى الله عليه وسلم - بالرسالة ، « أَنَّ خَيْرَ خَلْقِهِ مُحَمَّدًا مَنْ جَاءَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى رَسُولُهُ » ؛ أنا أشهد أن خير خلقه محمداً - صلى الله عليه وسلم - الذي « جَاءَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى » ؛ أي من الله عز وجل « رَسُولُهُ » ؛ أي رسول الله عز وجل مرسل من ربه ، والشهادة له - عليه الصلاة والسلام - بالرسالة تعني : طاعته فيما أمر واجتناب ما نهى عنه وزجر وتصديقه فيما أخبر وألا يعبد الله إلا بما شرع ، هذا هو معنى الشهادة ، ولهذا قال الله تعالى : « وما أرسلنا من رسول إلا ليطاع بإذن الله » فالرسل بعثهم الله تبارك وتعالى ليطاعوا ، فمن شهد أن محمداً - صلى الله عليه وسلم - رسول الله فإن هذا يعني طاعته فيما أمر وتصديقه فيما أخبر والانتفاء عما نهى عنه وزجر .

قال : « رَسُولُهُ إِلَى جَمِيعِ الْخَلْقِ » ؛ وهذا فيه الشهادة بأن رسالة النبي - صلى الله عليه وسلم - عامة : « وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين » ويقول - عليه الصلاة والسلام - : « أنا الرحمة المهداة » فهو - عليه الصلاة والسلام - رسول لجميع الخلق بماذا ؟ قال : « بِالنُّورِ وَالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ » قال تعالى : « وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان ولكن جعلناه نوراً نهدي به من نشاء من عبادنا وإنك لتهدي إلى صراط مستقيم صراط الله الذي له ما في السماوات وما في الأرض ألا إلى الله تصير الأمور » فهو - عليه الصلاة والسلام - مرسل بالنور الذي هو الوحي « كذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا ما كنت تدري

ما الكتاب ولا الإيمان ولكن جعلناه نوراً» قوله: «وَالْهَدَى وَدِينِ الْحَقِّ» ؛ كما قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ﴾ ، «وَالْهَدَى وَدِينِ الْحَقِّ» العلم النافع والعمل الصالح ، الهدى هو العلم النافع ودين الحق هو العمل الصالح ، والله عز وجل بعث نبيه - صلى الله عليه وسلم - بالهدى أي بالعلم النافع والعمل الصالح.

قال :

صَلَّى عَلَيْهِ رَبُّنَا وَجَّحًا وَالْآلِ وَالصَّحْبِ دَوْمًا سَرْمَدًا

« صَلَّى » ؛ أي عليه ، على النبي - صلى الله عليه وسلم - .

« رَبُّنَا وَجَّحًا » فيه هذا الدعاء الذي هو الصلاة على النبي - عليه الصلاة والسلام - ، وقوله « وَجَّحًا » أي أثنى عليه في الملاء الأعلى ، كما قال أهل العلم أبو العالية وغيره في معنى صلاة الله على نبيه : « هي ثناؤه عليه في الملاء الأعلى » هذا معنى قوله - رحمه الله - : « صَلَّى عَلَيْهِ رَبُّنَا وَجَّحًا » .

« وَالْآلِ وَالصَّحْبِ » ؛ أي : عليه وعلى آل والصحب « دَوْمًا سَرْمَدًا » .

« الْآلِ » ؛ أي : آل النبي - عليه الصلاة والسلام - ، ويطلق آل ويراد به من آمن به من قرابته ويطلق آل ليعم كل أتباعه - عليه الصلاة والسلام - بإحسان « وَالْآلِ وَالصَّحْبِ » ؛ أي : وصلى على آل والصحب « دَوْمًا سَرْمَدًا » أي دائماً وأبداً ، يقول الشيخ في شرحه لمعنى آل قال : « الْآل : آله هم أتباعه وأنصاره إلى يوم القيامة كما قيل :

آل النبي هم أتباع ملته على الشريعة من عجم ومن عرب

لو لم يكن آله إلا قرابته صلى المصلي على الطاغية أبي هب »

لو كان المراد مجرد القرابة فقط إذن يكون الذي يصلي على آل يصلي على أبي هب ، فالآل إما أن يراد به من آمن به - عليه الصلاة والسلام - من قرابته أو يراد به إطلاق أعم وأوسع من ذلك وهم كل أتباعه - عليه الصلاة والسلام - بإحسان ويشهد لهذا المعنى ما جاء في الصحيح قوله - عليه الصلاة والسلام - : « إن آل أبي فلان ليس لي بأولياء إن وليي الله وصالح المؤمنين » .

قال - رحمه الله - :

وَبَعْدُ هَذَا النَّظْمُ فِي الْأُصُولِ لَمَنْ أَرَادَ مِنْهُجَ الرَّسُولِ
سَأَلَنِي إِيَّاهُ مَنْ لَا بُدَّ لِي مِنْ امْتِثَالِ سُؤْلِهِ الْمُتَشَبِّهِ

فَقُلْتُ مَعَ عَجْزِي وَمَعَ إِشْفَاقِي مُعْتَمِداً عَلَى الْقَدِيرِ الْبَاقِي

ثم ذكر هنا هذا النظم والمقصود في نظمه وسبب هذا النظم فيقول :

« وَبَعْدُ » ؛ أي : بعد الشهادتين والثناء على الله بما هو أهله والصلاة والسلام على نبيه - عليه الصلاة والسلام - .

« هَذَا النَّظْمُ فِي الْأُصُولِ » ، « هَذَا النَّظْمُ » ؛ الذي بين يديك « فِي الْأُصُولِ » ؛ والمراد بالأصول أي : أصول الدين وأمور الاعتقاد ومهمات الشريعة ، والدين له أصل وفرع ، أصوله هي العقائد ، العقائد الدينية الصحيحة المستمدة من الكتاب والسنة ، قال تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ ﴾ فالدين له أصل وفرع وأصول الدين هي العقائد التي يقوم عليه الدين تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وبالقدر خيره وشره ، ويدخل في هذه الأصول مهمات الدين الكبار مما أحقه أهل العلم في كتب العقائد بالأصول مثل : العقيدة في الصحابة - رضي الله عنهم - ولزوم الجماعة ونحو ذلك من مسائل الكبار التي تذكر في كتب العقائد المختصرة والمطولة فيقول : « هَذَا النَّظْمُ فِي الْأُصُولِ » ؛ أي : في أصول الدين .

« لَمَنْ أَرَادَ مِنْهَجَ الرَّسُولِ » ؛ هذا النظم في أصول العقائد للذي يريد « مِنْهَجَ الرَّسُولِ » ، وهذا فيه براعة استهلال في بيان الكتاب ومقصوده ففي هذا البيت الواحد بين لك أن هذا الكتاب مؤلف في العقيدة على منهج الرسول ، مثل هذا قول ابن أبي العز في مقدمة شرحه للعقيدة الطحاوية قال : « كيف يرام إلى علم الأصول بغير ما جاء به الرسول - صلى الله عليه وسلم » لا يمكن أن تصل إلى الاعتقاد الصحيح والدين القويم إلا بالأخذ بما جاء به الرسول - صلى الله عليه وسلم - ، كان ابن تيمية - رحمه الله - كثيراً ما يقول « من فارق الدليل ضل السبيل » ولا دليل إلا بما جاء به الرسول - صلى الله عليه وسلم - ، فيقول : « هَذَا النَّظْمُ فِي الْأُصُولِ لَمَنْ أَرَادَ مِنْهَجَ الرَّسُولِ » - عليه الصلاة والسلام - ، الذي يريد العقيدة الصافية النقية مأخوذة من منهج الرسول - عليه الصلاة والسلام - يجدها هنا في هذا النظم ، نظمت هذه المنظومة لبيان ذلك ، هذه الطريقة في البدء درج عليها أهل العلم من أهل السنة في عامة كتب العقائد المختصرة والمطولة ، ولهذا انتبه لهذا عامة كتب أهل السنة المؤلفة في الاعتقاد المختصرة والمطولة دائماً يبدوونها بذكر المصدر والمنبع الذي استمدوا منه هذه العقيدة وأنها مستمدة من كتاب الله وسنة نبيه - صلى الله عليه وسلم - ، ولهذا يطمئن المسلم القارئ المطلع للعقيدة عندما يعلم أنها حقاً وصدقاً متلقاة من كتاب الله وسنة نبيه -

عليه الصلاة والسلام -، وهذا الاستهلال من أهل السنة وأئمة السلف -رحمهم الله - لكتبهم ليس مجرد دعوى بل هو إخبار عن حقيقة ما صنعوه وما كتبوه بخلاف أهل الأهواء فإن بعضهم يُلبس على العوام وعلى الجهال فيضع في مقدمة كتابه أو في عنوان كتابه وطُرّة كتابه أنه مستمد من الكتاب والسنة وإذا نظرت في حقيقة الأمر وإذا به مستمد من العقل أو من الرأي أو من المنطق وغير ذلك ويضع عنوان الكتاب عقيدة أهل السنة والجماعة أونحو ذلك من العناوين التي فيها إيهام للمطلع أنها مستمدة من الكتاب والسنة وهي بخلاف ذلك وما أكثر الكتب التي تروج ويضلل بها الناس بهذه الطريقة .

يقول :

سَأَلَنِي إِيَّاهُ مَنْ لَأَبْدَ لِي مِنْ امْتِثَالِ سُؤْلِهِ الْمُثْتَلِ

وهذا أيضاً بيان لسبب تأليفه النظم وأن سبب ذلك أنه سأله أي طلب منه « مَنْ لَأَبْدَ لِي مِنْ امْتِثَالِ سُؤْلِهِ » ؛ أي : لا مناص لي إلا أن أجيبه وهو يشير هنا إلى شيخه الشيخ عبد الله القرعاوي لأنه لما رأى براعته في العلوم وفهمه للتوحيد وسهولة النظم عنده وإمامه الجيد بأمور الاعتقاد أشار عليه أن يكتب منظومة في التوحيد فطلب منه هذا الأمر ولهذا يقول : « سَأَلَنِي إِيَّاهُ مَنْ لَأَبْدَ لِي مِنْ امْتِثَالِ سُؤْلِهِ الْمُثْتَلِ » ؛ أي : هو شخص سؤله وطلبه ممتثل لمكانته ولقدره ولفضله ولأحققته بذلك فاستجاب وهذا أيضاً فيه أدب الشيخ حافظ وتقديره لشيخه رحمه الله .

قال : « فَقُلْتُ » ؛ لما طلب مني « فَقُلْتُ مَعَ عَجْزِي وَمَعَ إِشْفَاقِي مُعْتَمِداً عَلَى الْقَدِيرِ الْبَاقِي »

« فَقُلْتُ » ؛ أي : جواباً لسؤاله لي وطلبه مني « مَعَ عَجْزِي » ؛ أي : عدم مقدرتي على ذلك « وَمَعَ إِشْفَاقِي » ؛ أي : خوفي من الغلط ، فأنا ليس عندي قدرة على هذا الأمر وأيضاً أشفق أن أخطئ وهذا يقوله - رحمه الله تعالى - تواضعاً ولهذا في الشرح يقول : « مع خوفي من الغلط في هذا الباب الذي المسألة منه أكبر من الدنيا وما فيها وذلك لقصر باعي وقلة اطلاعي والذي قوى عزمي على ذلك هو كوني « مُعْتَمِداً » ؛ أي : متوكلاً عَلَى الْقَدِيرِ » الذي لا يعجزه شيء في السموات والأرض « الْبَاقِي » الذي كل شيء هالك إلا وجهه ، فاعتمادي على الله والتجائي إليه ورغبتي منه سبحانه وتعالى عزمت على هذا الأمر استجابة لطلب الشيخ مني هذا الطلب مع اعترافي بالعجز والقصور .

والله أعلم، وصلى الله على نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين.